لن يسقط سيبويه أبدًا*

الدكتور سالم علوي.

جامعة الجزائر

إنّه لعنوان ضخم ومخيف، هز علماء اللسان العربي شرقا وغربا وشمالا وجنوبا وتعداهم إلى نواب الشعب في مصر وأقيمت حوله الندوات بالشرح والتحليل، وتباينت الآراء إزاءه بين قادح ومادح وتاقت نفسي إليه، وبذلت المستحيل في الحصول عليه، كيف لا يشتاق القارئ إليه، والكاتب يدعو للغة العربية بالحياة والدوام ولسيبويه مؤسس علم اللسان البشري وفخر لغة الضاد بالموت والفناء. وكدت أتمزق شظايا إليه وما هدأ لي بال حق أغاثني به الشاب الأستاذ الدكتور صالح بلعيد مشكورًا، وآثرني على نفسه قبل أن يقرأه أو يعلق عليه، فهدأ البال واتضح المقال، وصدق من قال:

---

* القواعد الأولى جمع قاعدة ، والثانية جمع قاعدّ وهو وصف رغم تذكيره فإنه يختص بالمرأة لأن الرجل لا يشركها في ذلك وهي التي قعدت عن الحيض فلا تنجب شيئا .

إياكم والعناوين إنها خدَّاعة ومغرية ! وكثيرًا ما أضلت القراء وانخدعوا بها. فكم من عنوان أغرى القراء فإذا تصحفوه وجدوه برقًا خُلَبًا لا خير فيه.

فهذا ما يصدق على كتابنا :" لتحيا اللغة العربية. يسقط سيبويه" فلا علاقة بين العنوان والمحتوى، ولا صلة بينه وبين سيبويه العالم اللساني الخالد، لذلك فضلت أن يكون النفي بلَنْ بدل أحرف النفي الأخرى لدلالتها على النفي التأبيدي على رأي الزمخشري وحتى لا أكون مغاليا أقدم للقارئ بنية الكتاب ومضامينه العشرة حتى يتأكد مما قلت له:

بنية الكتاب: هيكل الكاتب مؤلفه في عشرة محاور ومقدمة، فكانت محاور الكتاب كالتالي:

1- برج بابل
2- هل هناك لغة عالمية
3- رسالة حراس الضاد
4- هل العربية لغة مقدسة .
5- المسيحيون والعربية
6- المتنبي يخاف الإعراب
7- شيزو فرينيه لغوية
8- غاية اللغة

9- ضد تحنيط العربية

10-الاستثناء العربي

يستطيع أي متفحص لهذه المحاور العشرة أن يدرك بالبداهة أن لا علاقة لها بالعنوان المهول والمخيف " لتحيا العربية - يسقط سيبويه " فالمؤلف كاتب بارع في كتابه الإنشاء ولا علم له باللسانيات العامة linguistique général وهو لا يعلم أن الألسن البشرية أصبحت علما من العلوم الدقيقة التي تخضع للتجارب المخبرية التي جعلها الله آية للعالمين . " واخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وأَلْوَانِكُمْ إِنَّ في ذلك لأياتٍ للعالَمِين" [1]

فوظيفة اللغات البشرية هي التعبير عن خوالج تجيش بها الصدور فتقذف بها الألسنة في أصوات متناغمة لتأدية الأغراض و قد حدّها ابن جنى بقوله : "هي أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم . " فلا قدسية لأي لغة كانت، فاللغات متساوية فهي إفراز اجتماعي إنساني تعبّر به الأمّم عن الأغراض والمآرب والعواطف، فالأصل الأول هو التعبير باللسان بين أبناء البشرية ثم تأتي الكتابة كفرع لاحق، إذ الكلام سابق للتسجيل والتسطير، فالناس كلهم يتكلمون بأصوات مشتركة ومحدودة عن أشياء غير محدودة. والقلائل منهم هم الذين يكتبون ويسطرون وهذا ما غاب عن الأستاذ شريف الشوباشي الذي يرى أن العيب في العربية وليس في أهلها قائلا: "وأقول لكل من يتعذب من جراء تعلم اللغة أو يشعر بعقدة نقص لعدم اجادة العربية اجادة تامة، لا تقلقوا فالعيب ليس فيكم ولكنه في اللغة التي لم تشملها سنة التطور، وأستطيع انطلاقا من هذا أن أبرئ ساحة ملايين العرب بل الأغلبية الساحقة من الشعب العربي من ذنب عدم تملك ناصية لغة الضماد بكل تعقيداتها ."[2]

وههنا لا بد من التمييز بين علم اللغة واللغة نفسها كآداة للتخاطب، فعلم اللغة هو علم بكيفية وليس نفس الكيفية، فابن السراج في تحديده للنحو يقول((النحو إنما أريد به أن ينحو المتكلم إذا تعلمه كلاّم العرب: وهو عِلْمٌ استخرجه المتقدمون فيه من استقراء كلام العرب حتى وقفوا منه على الغرض الذي قصده المتقدمون بهذه اللغة))[3]

ومن هذا النص نعلم أن اللغة سابقة على العلم وهذا ما قام به سيبويه الذي استقرى كلام العرب واتخذ الشعر الجاهلي والإسلامي والقرآن الكريم مدونة Corpus فاستوفى خصائص اللسان العربي الصوتية والافرادية والتركيبية والدلالية، فجاء كتابه جامعا مانعا وسيظل كذلك لأنه يتكلم بموضوعية علمية لا دخل للذاتية فيه، فلا قدسية للعربية فيقول: " وأمّا قوله تعالى :" وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذبينَ " " وويل للمطّففين " فإنه لا ينبغي أن نقول إنه دعاء لأن الكلام به قبيح و اللفظ به قبيح، ولكن العباد إنما كلموا بكلامهم، وجاء القرآن على لغتهم وعلى ما يعنون))[4] " لاحظ معي ولكن العباد" ، ولم يقل " ولكن العرب " ولا كلام العرب ولا القرآن بلغة العرب ليسحب هذا على قوله تعالى: " وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ)) وهذا نفي صريح لقدسية اللغات التي نزلت بها الكتب السماوية، إذ الإعجاز في مضامينها وما جاءت به من آيات بينات تُهْدَى بها الأمَمُ. وتنعم بها في توثيق العلاقات بين الشعوب والقبائل والعشائر وهي قابلة للتطور والتوسع إن صرفت و الفناء والتقوقع إن هي لم تصرف وتستعمل.

أما شريف الشوباشي فيقول: ((وأنا على ثقة من أنني أترجم المشاعر الدفينة في نفوس ملايين العرب، وأنا اهتف قائلا: يسقط سيبويه على رِسْلِك يا شريف ! ما

هذا الهتاف بسقوط سيبويه، ما السحر الحلال الذي أتيت به وضمدت به جروح الملايين من العرب مما أصابها من كتاب سيبويه من غثيان فلا داعي لهذا الهتاف، واعلم أن ملايين الملايين من العلماء اللسانيين يعكفون على دراسة كتاب سيبويه من الألمان والفرنسيين والإنجليز والأمريكان والأسبان والهنود والإيرانيين وغيرهم من غير العرب ومن العرب أنفسهم، فالعلم لا يعرف الحياد بل هو للجميع، والكل يدعو له بالرحمة والمغفرة على ما أسدى لهم من نظريات علمية صالحة لكل زمان ومكان، ولكل امة وجيل كما يقول سيبويه نفسه.

فاللغة ملكة لسانية يمتلكها الفرد من المجتمع الذي يعيش فيه، وتنمو بنمو المخترعات والمبتدعات فالمناخ الأساسي للغات هو الاستهلاك اليومي في الدواوين والأسواق والبيع والشراء والايجار والخطب في المساجد في أيام الجمعة و البلاغات والنوادي والمحافل والأفلام وغير ذلك، وتتحجر وتتجمد في المؤلفات والمعاجم إذا لم تنشر وتستخرج من قوقعتها وتعم الآفاق الاجتماعية، والخطابات اليومية إذ السمع أبو الملكات اللسانية " كما يقول ابن خلدون. تنمو بالاستعمال وتنكمش بالهجران، فالألسن تدفع والآذان تعي وتسمع. وكل شيء مهيأ لما خلق له

وهنا نقول للأستاذ "شريف الشوباشي" إن العيب ليس في العربية وإنما العيب في الناطقين بها الذين يفضلون التكلم بالإنكليزية أو الفرنسية أو غيرهما ، وبخاصة أصحاب القرار والمثقفين ، إذ هم القدوة الحسنة لشعوبهم والأنموذج الأكمل للاقتداء بهم ، وقد أحسنت جيدا عندما تنبهت لسيادة اللغة الإنكليزية لما توفر لها من آليات جعلتها لغة عالمية فقلت: ((ومن المشروع أن نتساءل : لماذا نجحت الإنكليزية في أن

تهيمن تماما وتصبح لغة التعامل الدولي في نهاية القرن العشرين ، وبداية القرن الواحد والعشرين [5]؟ .

لا شك في أن السبب الأول كما قلنا هو أن الولايات المتحدة صارت بعد الاتحاد السوفياتي القوة الأولى في العالم ، بل أصبحت القوة المتحكمة في مصائر الشعوب ، ولا تكتفي أمريكا ببسط سيطرتها سياسيا واقتصاديا فقط ولكنها صارت أكبر مصدر للثقافة بالمعنى الواسع للكلمة ، فهي أكبر مصدّر للأفلام والأغاني والبرامج التلفزيونية والسي دي C D والأنترنت)) [6]

إن القواعد التي رأيت أنها لم تتطور منذ ألف وخمسمائة سنة ، فإنها لا تغني متعلمها شيئا بل تميت المواهب فيه وتقضي عليه وقد أدرك العلماء اللسانيون ذلك ، قال الإمام الشيخ عبد الحميد ابن باديس –رحمه الله– مخاطبا المعلمين بالجزائر الذين شُغْفوا بحفظ المتون وكتب القواعد في عصور انحطاط الثقافة العربية "تتبعتم القواعد حتى أصبحتم كالقواعد" إشارة إلى قوله سبحانه وتعالى "والقواعْدُ مِنَ النِسَاءِ اللاتِي لاَ يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهُنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثْيَابَهُنَ غَير مُتَبَرِجَاتٍ بزْينة وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيرٌ لَهُنَ")) ومن قبل عبد الحميد ابن باديس نجد ابن خلدون أدرك جيدا الفرق بين من يهتمون بالقواعد وما تسببه لهم من عقم في الأداء الإنشائي ، فقال : ((لذا نجد كثيرا من جهابذة النحاة والمهرة في صناعة العربية المحيطين علما بتلك القوانين ، إذا سئل في كتابة سطرين إلى أخيه أو ذي مودته ، أو شكوى ظلامة أو قصد من قصوده ، أخطأ فيها وأكثر من اللحن، ولم يُجِدْ تأليفَ الكلام لذلك ، والعبارة عن المقصود فيه على أساليب اللساني العربي .

وكذا تجد كثيرا ممن يحسن هذه الملكة ، ويجيد الفنين من المنظوم والمنثور ، وهو لا يحسن إعراب الفاعل من المفعول ، ولا المرفوع من المجرور ولا شيئا من قوانين صناعة العربية))[7] .

التطور اللغوي لا يستشير

أثار الأستاذ :شريف الشوباشي" قضايا لغوية في منتهى الخطورة ، وأصدر أحكاما أخطر ، وهي جديرة بالوقوف أمامها لأنها لا علاقة لسيبويه بها، وإنما هي من محض التقول عنه ، سماها : "باللغة الفصحى التي نرمز إليها أحيانا بلغة سيبويه))[8] وهذا تحامل خطير على سيبويه ، إذ مفهوم الفصاحة عنده ما شاع وذاع وكثر استعماله على ألسنة الناطقين باللسان العربي .

ولهذا سنركز على النقاط التالية :

أ–مبدأ التطور اللغوي .

ب–التطور والتطوير وما بينهما من تلاق وافتراق .

ج–نشأة اللغة البشرية واختلاف الآراء فيها .

د–كثرة الترادف في العربية .

هـ–لا جديد في الكتاب .

أ–مبدأ التطوراللغوي :

نسجّل للأستاذ "شريف الشوباشي" شجاعته وجرأته في طرح القضايا الحساسة والملغمة ، أصاب فيها أم أخطأ ، فهو يقول :"إن اللغات البشرية كلها قابلة

للتطور إلا العربية ، فيقول بصريح العبارة ((وإذا اقتصرنا على مجال اللغة وهو موضوع هذا الكتاب ، فإن التيار الغالب عندنا يقول : "كل لغات العالم قابلة للتطور والإصلاح إلا لغتنا العربية ، ثم يسوقون حججا عديدة لتبرير هذا الاستثناء ، على رأسها العربية لغة القرآن)) [9] إذن فالنتيجة الحتمية والمعروفة وفق هذه الرؤية إن العربية ليست بلغة لأنها لا تتحلحل ولا تتغير كغيرها من لغات العالم التي تتطور، مع أن علماء اللسان العربي أحسوا بتغير العربية وتطورها من زمان إلى زمان ومن مكان إلى مكان ، فقال أبو عمرو بن العلا : " ما لِسان حمير وأقاصي اليمن اليوم بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا ، فكيف على عهد عاد وثمود مع تداعيه ووهيه)) [10] فقوله "اليوم" ضبط تام للعصر الذي يعيش فيه ، وقال في موضع آخر :" ولكن العربية التي عنى محمد بن علي اللسان الذي نزل به القرآن، وما تكلمت به العرب على عهد النبي صلى الله عليه وسلّم –وتلك عربية أخرى غير كلامنا))[11] .

إن هذه الرؤية الصريحة في تغير اللغة وتغييرها من عهد إلى عهد ومن زمن إلى زمن، وذلك لأن علوم اللغة العربية نشأت نشأة عفوية عربية، ثم تلاقت مع حضارات أمم تتمتع برصيد لغوي وفلسفي كبيرين ، فخضعت لقانوني التأثير والتأثر ، تبعا لسنّة الله ، ولن تجد لسنة تبديلا ، فتفاعلت مع هذا الوافد الدخيل من هذه الحضارات التي سادت ثم بادت ، وما فقدت عبقريتها وخصائصها المتمكنة في الذهنية العربية ، ولم تنغلق انغلاقا كليا –كما يزعم شريف الشوباشي– الذي يجعل منها لغة متحجرة ميتة لا تتفاعل مع الواقع الحضاري المتطور .

إن ألفاظ اللغة أي لغة كانت يعتريها ما يعتري الكائن الحي من تغير وتغيير ، وزيادة ونقصان ، ومرض وصحة ، وحياة وموت ، رغم أن ليس لها ((

ذَاتٌ ولا وزنٌ ولا لونٌ ، وهي مسموعة بالآذان ، موصوفة بالألسن غير منظور إليها))[12] لكن دلالتها منها المتغيرة والثابتة ، فالدلالة عرضة للاهتزاز ، والحذف والبتر والموت والحياة لما يطرأ عليها من الاستعمالات المختلفة للمجتمعات المتنامية والمتباينة والخاضعة للحاجات المتولدة لإشباع أغراض البشر ، وأعرافهم ومعاملاتهم ، وهواجسهم الدينية والدنيوية غير المتناهية ، فهي ظاهرة اجتماعية تزدهر بازدهار فنون القول ، وتتغدى بفصل الخطاب ، لكنها لا تسير على وتيرة واحدة في التطور مثل ما يخضع له الكائن الحي الذي يبدأ ضعيفا ، ثم يقوى ثم يشيخ ويهرم ، فالتطور الدلالي تحكمي ، وليس من الضروري أن يسير على خط النمو والارتقاء ، بل على النقيض من ذلك أحيانا، فقد تكون دلالة لفظ مَّا في أعلى عليين ، وفي أعلى من الدلالة وأرقامها، ثم يصيبها التحول والتغير إلى أسوأ الدلالات ، ولنا مثل فيما نقول في لفظ "الجرثومة والأرومة" .

فالجرثومة في وضعها اللغوي تدل على أصل النسب ، جاء في فقه اللغة للثعالبي "الجرثومة والأرومة أصل النسب)) [13]، فاللفظتان تغيّرت دلالتهما ، فإحداهما تحوّلت من دلالتها الأساسية التي تعني الأصل والنسب إلى العاهة المزمنة وغدت مصطلحا طبيا يدل على الميكروب microbe ، والأخرى تنوسيت وفقدت إشعاعها الدلالي ونامت في غضون النصوص العربية الأولى وقلّ استعمالها في الإنشاءات المعاصرة .

ومن الألفاظ التي اكتسبت دلالة التوسع والارتقاء "المسرح" الذي كان يعني مرعى الإبل والغنم والخيل والبغال والحمير والعنز، وغيرها من الأنعام ، لكن دلالتها شاعت وارتفعت إلى علم ذي مستوى عال ، له قوانينه الخاصة، واختص

به أقوام من الكتّاب المختصين ، وما مصطلح "الفنّان" بأقل تطور من مصطلح "المسرح" فقد كان يطلق على الحمار الوحشي لتفننه في العدو ، ولكن دلالته المتداولة اليوم تعني صاحب الموهبة الفنية ، كالشاعر والكاتب والموسيقي والمصور والممثل ، وغير هؤلاء ممن يطلق عليه مصطلح المبدع.

واللافت للنظر أن المؤلف نفسه هو صنيع هذا التطور والتطوير ، فعربيته ليست هي عربية عبد الحميد الكاتب ولا الجاحظ ولا أبي حيان التوحيدي ولا غير هؤلاء ، ومن الأخطاء التي وقع فيها بعض النقاد العرب ، مقولتهم المشهورة "ابتدأت الكتابة بعد الحميد وانتهت بابن العميد" فهذا حكم جائر ، فالعربية لا تعرف التوقف ولا التخلف ، فهي تساير مناحي الحياة أخذا وردا علوا وهبوطا ، لما لها من طواعية وليونة تمثلت في الأخذ والاشتقاق والنحت والتوليد ، والترجمة والتعريب ، وقد تنبه المؤلف إلى هذا في أكثر من موقع ، ولكنه مشدود بعقدة قصور العربية وتحجرها ألم يقل هو نفسه ((لا شك أن العربية قد عرفت تطورا ضخما خلال القرن العشرين ، لكن هناك فرقا جوهريا بين التطور والتطوير، فمنذ ظهور الصحافة بصفة خاصة بدأت العربية مرحلة جديدة من التطور الطبيعي المنسجم مع ضرورة الاتصال بالناس وتقديم المعلومات للقارئ بالصورة التي يقدر عليها)) [14] لفتة كريمة لولا أنه أعقبها "لكنّ" الاستدراكية ، وهنا يصدق عليه ما قاله هو نفسه في الرد على الذين نقدوه بأنهم" اكتفوا بالمثل القائل الكتاب يقرأ من عنوانه"[15] نقول هذا –ونحن على ثقة– من أنه لم يقرأ "الكتاب" وإنما سمع به لأنه لا عنوان له ، ولو قرأه وكان له إلمام بسيط بعلم اللسانيات العامة linguistique générale لصاح متلذذا بحياة سيبويه ومنوّها بعبقريته ، ولعلم علم اليقين أن سيبويه ليس منشئا مثل الجاحظ وابن العميد وابن عبد

ربه وغير هؤلاء من فحول البيان العربي ، ولكنه عالم لساني linguiste يمتاز بالحس اللغوي الذي ضبطه ابن جني ضبطا عاما بقوله "لأن طريق الحس موضوع تتلاقى فيه طباع البشر ، ويتحاكم إليه الأسود و الأحمر" [16] .

فالنظريات اللسانية لا تتقيد بالزمان ولا المكان ولا الأشخاص وإنما هي ملك للجميع وبأي لغة كانت ، واللغة العلمية مضبوطة لا تتحمل الاستعارة ولا التمثيل ولا الكناية ، لكن اللفظة تعبر عن دلالة مضبوطة وإذا لم تتصف بهذا المدلول فليست بلغة علمية ، فالابتعاد عن الظلال والإيحاء والتأويل من لوازم اللغة العلمية ، وقديما فرّق العلماء بين الأسلوب العلمي والأسلوب الأدبي ، فالعالم اللساني يقرر حقائق علمية لغوية تنطبق على كل الألسن البشرية ، وهذا ما امتاز به سيبويه العالم اللساني .

فالتطور حاصل شئنا أم أبينا ، وما هذا الزخم من الكلام الذي نسمعه في الإذاعات والمحاضرات والبيانات وفي نشرات الأخبار في مختلف القنوات المسموعة والمرئية في آن واحد ، وما نقرأ في الجرائد والمجلات وعلى شبكات الإنترنت ما هو إلا تطورا دال على الانفجار الذي حدث في العربية ويدل دلالة واضحة لا تقبل المناقشة أن العربية لغة نامية متحركة متطورة صالحة لكل عصر و مصر.

ب–الفرق بين التطور والتطوير :

هذا ولا بدّ من الإشارة إلى قضية أساسية لغوية أثارها المؤلف ، وتعني الفرق بين التطور والتطوير وما بينهما من تلاق وافتراق ، وقد أصاب المؤلف مفصل الصواب في التفرقة بينهما حين قال :"لا أشك أن العربية قد عرفت تطورا ضخما خلال القرن العشرين ، لكن هناك فرقا جوهريا بين التطور والتطوير ، فمنذ ظهور

الصحافة بصفة خاصة بدأت العربية مرحلة جديدة من التطور الطبيعي المنسجم مع ضرورة الاتصال بالناس وتقديم المعلومات للقارئ بالصورة التي يقدر عليها .

لكن ما أقصده ليس التطور .....وإنما التطوير ، وهناك فرق جوهري بين الاثنين ، فالأول ظاهرة طبيعية لا يستطيع أحد أن يقاومها لأنها سنة من سنن الحياة ، لكنها تحدث دون تدبير محكم يضعها في سياق منهجي ، أما التطوير فهو جهد إرادي جماعي للخروج من حالة السكون ، وذلك من خلال تقنين التطور وإيجاد الآليات اللازمة للوصول به إلى مداه)) [17] .

لا جرم أن اللغة تتطور داخليا بطريقة عفوية عملية حسب ما يعتريها من أداءات مختلفة وتفاعلات استعمالية فتتعرض للاختزال والاختصار والزيادة والنقصان والبتر والتحوير بين الأفراد المنتمين إلى مجتمع ما ، وغالبا ما يكتب الاستمرار والنجاح لهذا التطور ، إذ كثيرا ما تكون العامة أصح نظرا من المجامع اللغوية العربية التي تعتمد المسطور والمزبور بدل المسموع المتداول وقبلا قال ابن خلدون :"السمع أبو الملكات اللسانية" فالفرق بين التطور والتطوير تكاملي لا جوهري كما يرى المؤلف .

أما التطوير فهو عملية معقدة تتم بفعل فاعل وتتطلب آليات وإحداثات في المناهج والكتب ، وتكوين المعلمين تكوينا تربويا وعلميا وبيداغوجيا ، ففاقد الشيء لا يعطيه ، فتهيئة الأجواء وتوفرها من مستلزمات الحياة العصرية كالمرافق العمرانية والملاعب الرياضية التي تنمي الروح الإنسانية وتغذي التفكير السليم في الأطفال والمعلمين ، فالعقل السليم في الجسم السليم، أما أن نحشرهم حشرا في علب ضيّقة ونوكل أمرهم إلى معلمين غير أكفاء ، فهذا أمر مخالف للطبيعة البشرية المحدودة الأداء والاستيعاب .

فعملية التطوير والتكيّف تكتنفها أشياء كثيرة تتعدى المحيط المدرسي إلى الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والنفسية والسياسية والتربوية للأسرة العربية التي تعاني نقصا في المسكن والمأكل والمشرب والملبس .

فالمعلم الذي لا يتوفر على مسكن صحيّ يُهدّئ رُوعَه ، ويُسَكّنُ أعصابه المضطربة من عناء العمل اليومي في مكتب مريح وفراش وفير ، لا يستطيع أن يؤدي رسالته التربوية ، وما قيل عن المعلم يصدق على التلميذ وأسرته ، ولا ننسى الكتاب المدرسي صديق التلميذ ودليل المعلم ، إذ لا بدّ أن يتوفر على النصوص الحيّة المستمدة من البيئة اللغوية المتداولة لا النائمة في بطون الكتب، وما دمنا نتحدث عن الكتاب الصالح للدراسة الذي يجعل العربية لغة سائغة وميسرة –وكان سيبويه في قلب الحدث– يحسن بنا أن نثبت ما ذهب إليه ابن خلدون في مقدمته حول المنهج الذي ينمي الملكة الإنشائية في المتعلم ويجعلها ميسرة لا عسر فيها فقال : "وقد نجد بعض المهرة في صناعة الإعراب بصيرا بحال هذه الملكة ، وهو قليل واتفاقي ، وأكثر ما يقع للمخالطين لكتاب سيبويه فإنه لم يقتصر على قوانين الإعراب فقط ، بل ملأ كتابه من أمثال العرب وشواهد أشعارهم وعباراتهم فكان فيه جزء صالح من تعليم هذه الملكة .

أما المخالطون لكتب المتأخرين العارية من ذلك إلا من القوانين النحوية مجردة عن أشعار العرب وكلامهم ، فقلما يشعرون لذلك بأمر هذه الملكة ، أو ينتبهون لشأنها فتجدهم يحسبون أنهم قد حصّلوا على رتبة في لسان العرب وهم أبعد الناس عنه))[18] هذه اللفتة العلمية من شريف الشوباشي نسجلها له بارتياح واعتراف إلا أنه ظلم سيبويه بقوله –يسقط سيبويه– وهو لم يقرأ كتابه كما ظلم العربية التي يرى أن الداء العضال فيها لا في متعلميها ، وهي المتبرئة من كل عيب ونقص

رموني بعقم في الشباب وليتني عقمت فلم أجزع لقول عداتي

فالداء والعقم ليس في سيبويه ولا في العربية ، إنما هو في أهلها المشرفين على وزارات التعليم والإرشاد والمديرين العامين المباشرين للعملية التعليمية ، إذ المدرسة هي الممر العام الذي يمر فيه الناس كلهم صغارا وكبارا ، رجالا ونساء ، فإذا تحسن أداؤها تحسنت ألسنتهم واستقامت على عربية فصيحة بمفهوم سيبويه للفصاحة في زمنه .

ج–نشأة اللغة واختلاف الآراء فيها :

ومن النقاط الهامة التي أثارها الكاتب في مؤلفه "لتحيا العربية يسقط سيبويه" قضية نشأة اللغة البشرية والتي أخذت حيّزا كبيرا في البحوث الفلسفية ، أما سيبويه فإنه لم يتعرض لها لا من قريب ولا من بعيد لأنه انطلق من واقع لغوي مدرك بالسمع وملفوظ باللسان في هيئات تركيبية بها يتم التواصل بين أفراد مجتمع عربي أطلقوا عليه مصطلح "اللسان العربي" كما جاء في القرآن الذي هو بلغة العباد لا بلغة الملائكة أو الجن .

لكن الذين جاؤوا بعده من العلماء اللغويين تداولوا موضوع نشأة اللغة البشرية بإسهاب ، وأحسن من تداوله بأسلوب علمي هو ابن جني من اللغويين – احترازا من الفلاسفة والمتكلمين– ولاحظ أن قسما منها ميتفيزيقيا لا يخضع للتجربة ، فلا يحق للغوي الخوض فيه ، وقسما ماديا يخضع للتجربة في المخابر العلمية كالأصوات ، فقد بسطها بسطا علميا كما تناولها سيبويه من قبله ، وانتهى أمره بأنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ، وأنها من صنع البشر ومأخوذة مما يحيط بهم .

فقال :((وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات هو من الأصوات المسموعات ، كدوي الريحَ وحنين الرعدَ وخرير الماءَ وسحيج الحمارَ ونعيق الغرابَ وصهيل الفرسَ ونزيب الظبي ، وغيرها ، ثم تولدت اللغات عن ذلك فيما بعد وهو رأي صالح ومذهب متقبل)) [19].ثم يفترض افتراضا علميا عن تنوع اللغات وتباينها انطلاقا من مبدأ التواضع والاصطلاح ، فيقول :"وكذلك لو بدئت اللغة الفارسية ، فوقعت المواضعة عليها لجاز أن تنقل و يولّد منها لغات كثيرة : من الرومية والزنجية وغيرهما ، وعلى هذا ما نشاهده الآن من اختراعات الصنّاع لآلات صنانعهم من الأسماء كالنجار والصانع والحائك وكذلك الملاّح)) [20] .

لا نريد أن نأخذ في أطراء ابن جني يخرجه عن حاق دائرة العلماء اللغويين، ولكن بموازاة كلامه بما ذهب إليه شريف الشوباشي لكي يتضح لنا أيهما أقرب إلى الحقيقة العلمية اللغوية وأصح مذهبا يقول شريف الشوباشي "إن الناس كانوا في بداية البشرية قوما واحدا ، يتكلمون لغة واحدة ، ثم ظهر في بابل ملك طاغية يدعى نمرود تصور أنه قادر على مناطحة الآلهة .

وشرع هذا الملك في بناء برج شاهق يرتفع به إلى عنان السماء حتى يصل إلى الآلهة ويتحداهم ، فقد كان هذا الملك يعتبر نفسه أقوى من الآلهة التي في السماء وأراد أن يثبت ذلك لقومه ، فما كان من الخالق إلا أن جعل العاملين في بناء البرج يتكلمون لغات مختلفة ، وعلى الفور اختفى التفاهم فيما بينهم ودبت الخلافات وأخذوا يتشاجرون بدلا من العمل في بناء البرج ولم يستطيعوا بالتالي إكمال البناء وأخفق نمرود في وضع مشروعه المجنون قيد التنفيذ)) [21]

من النصين السابقين يتجلى لنا البحث اللغوي العلمي من البحث اللغوي الأسطوري الخرافي ، فما رواه شريف الشوباشي ، إن صحّ معجزة خارقة للعادة فلن يصح عقلا وعادة تعارف الناس عليها ، إنما الذي نلمسه ونحسه هو ما نشاهده في واقعنا اللغوي اليومي ، فلو عدنا قليلا إلى الزمن المار قريبا منا ما سمعنا : "الجوال" و لا "النقّال" و لا "المحمول" ثلاث مفردات لحقيقة واحدة portable وهو الهاتف المتحرك الذي لا يكلف حامليه لا جهدا ولا غيابا ، فهو الخفيف الحاضر معنا حيثما نكون، يقضي لنا الحوائج ويسهل علينا الاتصال دون مشقة ولا عناء بل يوافينا بالجواب إن كان خارج التغطية أو مغلقا أو معطلا أو لم يعد في الخدمة ، إلى غير ذلك ، إنها العربية النامية المتفتحة على كل جديد ، مثلها مثل جميع لغات العالم الحية ، فاللغة تنمو بنمو المخترعات وتتطور بتطورها ((ومن هذا الذي في الأصوات ، ما يتعاطاه الناس الآن من مخالفة الأشكال في حروف المعجم كالصورة التي توضع للمعميات والتراجم ، وعلى ذلك أيضا اختلفت أقلام ذوي اللغات ، كما اختلفت أنفس الأصوات المرتبة على مذاهبهم في المواضعات)) [22].

د: كثرة الترادف في العربية :

كما أعاب الكاتب العربية بتراكم المترادفات فيها ، فالأوصاف متعددة والموصوف واحد ، وهو عيب توصم به العربية كثيرا لما يحدثه من صعوبة في فهم الغرض المحدد ، كما لاحظنا في ترجمة portable بثلاث مفردات ، والحقيقة أن هذا التنوع يعود إلى تباعد البيئة ولا يسبب انغلاقا في الفهم، بل فيه اتساع في الخطاب ، وما أحسن قول أبي علي الفارسي فيما رواه السيوطي عنه في مزهره "حكى الشيخ القاضي أبو بكر بن العربي بسنده عن أبي علي الفارسي قال :((كنت بمجلس سيف الدولة

بحلب وبالحضرة جماعة من أهل اللغة ، وفيهم ابن خالويه ، فقال : أحفظ للسيف خمسين اسما فتبسم أبو علي وقال : ما أحفظ له إلا اسما واحدا ، وهو السيف ، قال ابن خالويه : فأين المهند والصارم وكذا و كذا ، فقال أبو علي : هذه صفات ، وكأن الشيخ لا يفرّق بين الاسم والصفة))[23] هذا ما ينطبق على الألفاظ الثلاث التي هي أوصاف كلها وليست بأسماء ذواتٍ ، فالذي قال : "نقّال" اعتبر حالة التنقل من يد إلى يد ومن قال : "جوّال" اعتبر حالة تجواله من مكان إلى مكان ، ومن قال "محمول" اعتبر فيه أنه يحمل بسهولة ، أما اسم الآلة المتواضع عليه عربيا فهو "الهاتف" أو "التلفون" المعرّب والشائع الانتشار على ألسنة الناطقين بالعربية ، وعلى هذا فلا عيب في العربية إن هي ترادفت ألفاظها ، إذ الترادف ظاهرة لغوية إنسانية أدائية تسهل للمتكلم التصرف في الكلم في كل اللغات البشرية .

وإنكار الترادف ليس بالأمر الجديد من ابتداع شريف الشوباشي فقد أنكرته جماعة من اللغويين قديما كما رأينا مع أبي علي الفارسي ، ولكن الحقيقة أن الإنكار وقع في الترادف التام ، أما التقريبي التفسيري فقد أجازه اللغويون وفرضه الواقع الاستعمالي وقد ذكروا مبررات كثيرة لإجازته لأسباب أدائية تبليغية جاء في المزهر في هذا الموضوع :"منها أن تكثر الوسائل –أي الطرق– إلى الإخبار عماّ في النفس ، فإنه ربما نسي أحد اللفظيين أو عسر عليه النطق به ، وقد كان بعض الأذكياء في الزمن السالف ألثغ ، فلم يحفظ عليه أنه نطق بالراء ، ولولا الترادفات تعينه على قصده لما قدر على ذلك .

ومنها التوسع في سلوك طرق الفصاحة ، وأساليب البلاغة في النظم والنثر وذلك لأن اللفظ الواحد قد يتأتى باستعماله مع لفظ آخر السجعُ والقافيةُ والتجنيسُ

والترصيعُ وغير ذلك من أصناف البديع ولا يتأتى ذلك إلا باستعمال مرادفه مع ذلك اللفظ)) [24]

وبناء على هذا الرأي ، فالترادف ضروري وأساسي يسهل عملية الخطاب، ويوسع الأداء ، وينوع أسلوب الخطاب ، وجاء به القرآن الكريم حين قصّ حكاية موسى مع أهله قال : ((إذ قال موسى لأَهْلِهِ إِنِي آنسْتُ نَارًا سَآتيكُمْ مِنْهَا بخَبَرٍ أوآتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَكُمْ تَصْطَلُونَ ، فلما جَاءَها نودِي أَنْ بُورِكَ مَنْ في النار ومن حولها ، وسبحان الله ربّ العالمين)) 28 .

وفي نفس القصة يقول الله سبحانه وتعالى : ((فلّما قَضَى مُوسَى الأجَل آنس من جانب الطور نارًا ، قال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ، فلما أتاها نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أَنْ يَا مُوسَى إني أنا الله ربّ العالمين))29 .

القصة واحدة جاء التعبير عنها مرة بـ "جاء" ومرة أخرى بـ "أتى" ابتغاء التنوع في الأداء لأن النفوس البشرية تشمئز من التكرير والاجتراء لغير حاجة ، وتنزع إلى التنوع والتلون في الخطاب .

هـ– لا جديد في الكتاب :

عندما قرأت هذه العبارة في مقدمة الكتاب ((عندما سلمت النص النهائي لهذا الكتاب إلى المطابع في أبريل 2004 لم أكن أتخيّل أنني أحمل بين يدي قنبلة موقوتة ستنفجر لتمزق الصمت المهيمن على الحياة الثقافية والفكرية في مصر منذ أكثر من ثلاثين عاما)) [25].

توقعت أن هذا الانفجار سيؤدي بانهيار كامل للتراث العربي القديم وسيفاجئنا الكاتب بنظريات لم يوفق العلماء اللغويون إليها "تنير لنا المنهج السليم لتطوير العربية وتطورها ، وتزيح كل ما علق بها من لوثة التحجر والتحنيط والموت والسقوط ، فإذا أنا أفاجأ بكلام مجتر متهر لاكته ألسنة متطرفة تدعو مرة إلى تيسير قواعد العربية دون بدائل ومرة إلى حذفها ومرة أخرى إلى تعويضها بقواعد خيالية ، ونسي هؤلاء أن تيسير علوم العربية: نحوها وصرفها وبلاغتها وعروضها كانت من اهتمامات المجامع اللغوية العربية منذ تأسيسها وقد قطعت أشواطا في هذا المضمار منها على سبيل المثال ما أبدعه الدكتور شوقي ضيف في كتابَيْهِ " تيسير النحو" و " تجديد النحو" .

بيد أن الجديد في الكتاب هو العنوان "يسقط سيبويه" والتهجم على القرآن الذي هو –بلا منازع– السبب الأول لتطوير اللسان العربي أو بعبارة خلد ونية "علوم اللسان العربي" ، أما الدين ودوره في تقديس العربية ، فإن هناك فرقا واضحا بين مصطلح "الدين" والقرآن ، فاللغويون يأخذون النص القرآني على أنه "كلام بلغة عباد ينتمون إلى سلالة العرب بعيد عن التقديس والتأليه .

كفى سيبويه التزاما بالبحث اللغوي –أنه يستشهد بالقرآن كلغة وكذا الشعر العربي جاهليه وإسلامه ولم يستشهد بالحديث النبوي مع أنه الركن الثاني في التشريع الإسلامي لأنه إن صحّ حكما فلم يصح لفظا ، وهكذا يتحرى سيبويه الدلالة اللغوية لا الاصطلاحية التعبدية .

ثبت المصادر والمراجع

[1] - ابن جني : الخصائص ج1 –دار الكتب المصرية 1952 .

[2] - شريف الشوباشي : لتحيا اللغة العربية يسقط سيبويه ص 12 .

[3] - ابن السراج : الأصول في النحو ج1 ص 35 عبد الحسين الفتلي –الرسالة بيروت د/ت.

[4] - سيبويه : الكتاب : تحقيق عبد السلام محمد هارون –مكتبة الخانجي د/ت مصر .

[5] - شريف الشوباشي لتحيا اللغة العربية مرجع سابق 18 .

[6] - شريف الشوباشي لتحيا اللغة العربية مرجع سابق 51 .

[7] - سالم علوي : نقلا من مقدمة ابن خلدون : وقائع لغوية وأنظار نحوية دار هومة ص20 –الجزائر .

[8] - شريف الشوباشي : لتحيا العربية مرجع سابق ص 09.

[9] - شريف الشوباشي : لتحيا العربية مرجع سابق ص 10.

[10] - ابن سلام الجمحي : طبقات فحول الشعراء –تحقيق شاكر السفر الأول ص 11 .

[11] - ابن سلام الجمحي : طبقات فحول الشعراء –تحقيق شاكر السفر الأول ص 10 .

[12] - أبو حاتم الرازي : كتاب الزينة في الألفاظ الإسلامية العربية ج1ص68 القاهرة 1957 .

[13] - الثعالبي : فقه اللغة/ منشورات مكتبة الحياة –بيروت /تا ص 63 .

[14] - شريف الشوباشي :لتحيا العربية يسقط سيبويه مرجع سابق ص78 .

[15] - المرجع السابق نفسه ص 05 .

[16] ابن جني : الخصائص /مصدر سابق ج1 ص 90 .

[17] شريف الشوباشي : لتحيا العربية يسقط سيبويه /مرجع سابق ص78

[18] سالم علوي : وائع لغوية ص144 نقلا عن مقدمة ابن خلدون .

[19] ابن جني : الخصائص ج1 ص 47/46 مصدر سابق .

[20] المصدر السابق نفسه ص 45/44 .

[21] شريف الشوباشي : لتحيا اللغة العربية ص 31/ .

[22] ابن جني : الخصائص /مصدر سابق ص 46/45 ج1 .

[23] السيوطي : المزهر ج1 ص 405 /تحقيق مجموعة من الأساتذة /دار حياء الكتب /مصر. د/ت .

[24] المصدر السابق نفسه ص 406 .

[25] شريف الشوباشي لتحيا العربية مرجع سابق ص 05 .